في جنائن الغرب

نعرب تباعاً تحت هذا العنوان خير مايؤخذ عن آداب الغربيين قديماً وحديثاً لما في ذلك من الفوائد الجليلة التي لا تخفى على أحد

الفارس

أرسلت الينا هذه القطعة الجميلة لننشرها في هذا الباب سيدة فاضلة غربية • و « الفارس » عنوان قصيدة نظمها في مديح الامير تاج الفخر الشاعر البولوني الشهير آدم ميكيه ويكس Adam Mickicwicz وهو كاتب حماسي أحبه مواطنوه حباً أشبه العبادة ودفنوه بعد موته في قبور ملوكهم • وقد دافع عن وطنه بولونيا مدافعة الابطال الى ان نفاه الروس فذهب بعد اسفار كثيرة الى فرنسا ودرّس في كليتها الكبرى ولما قامت روسيا تهدد تركيا سنة ١٨٥٤ سافر الى الاستانة وتبعه من بولونيا ألوف من المتطوعين للدفاع عن السلطنة العثمانية • وفي السنة التي بعدها أصيب بالكوليرا وتوفي في الاستانة • ولم ينس العثمانيون صديقهم فان « جمعية الاتحاد والترقي » لما احتفلت بتذكار حرب القريم في ١٧ اغسطس (آب) الاخير، وضعت على البيت الذي توفي فيه هذا الشاعر صفيحة من البرنز ، ونقشت عليها تحت اسمه هذه العبارة « صديق العثمانيين » وكان هذا الوطني الكبير اثناء وجوده في باريس قد أصدر جريدة بعنوان Tribune des Peuples «منبر الشعوب» ما لبثت ان احتجبت • وقد عاود اشياعه اليوم اصدارها في الاستانة وجاءنا البريد الاخير بأول عدد منها • • • واليك قصيدة « الفارس » التي أشرنا اليها :

ما أسعد الفارس العربي عند ما ينطلق من اعلى صخرة منحدراً الى الصحراء ، على جوادٍ تنغرس قوائمه في الرمال بصوتٍ اصم • ويسبح في ذاك البحر اليابس شاقاً امواجه الجامدة بصدرهِ الدلفيني

شدة جريه تزداد بسرعة عظيمة ، حتى انه بعد هنيهة يكاد لا يمسُّ سطح الرمال ، ثم يزدادُ سرعة فيحتجب في دجى النقع ...

فرسي ادهم بلون الغمامة ، وفي غرّته نجمٌ يسطع كالفجر الباسم . والرياح تتلاعب بعرفهِ الشبيه بريش النعام . والبرق يومض من تحت قوائمه المحجلة

طِرْ يا حبيبي المحجل تنحي يا غابات ، ويا جبال افسحي مجالاً ..!

النخل الاخضر يعرضُ عليَّ عبثاً ظلهُ وثمره ، فاني اعرض عنه نافراً ، فيهرب مني خجلاً ، ويتوارى في الواحة ، فيخيل اليَّ انه بخفيف اوراقه يضحك من جرأتي

الصخور الواقفة على حدود الصحراء تحوّل نحوي وجهاً عبوساً كالحاً ، وتردّد صدى عدْوي كانها تهددني قائلة : « الى اين يجري هذا الاحمق ، فهنالك لا ملجأ لفرسهِ من سهام الشمس في ظل نخلةٍ خضراء الشعر ، ولا تحت خيمة بيضاء الصدر ، هنالك لا خيمةَ إلاّ القبة الزرقاء ، ولا يرقدُ تحتها إلاّ الصخور ، ولا يَرى فيها سوى النجوم »

على اني لم ازل أجدُّ في الجري . ثم نظرت ثانيةً الى الصخور ، فرأيتها تهربُ وتختبئ خجلاً

بيد ان عقاباً سمع تهديدها وتوهم انه سيأسرني في الصحراء ، فانقضّ من السماء على اثري ، وحام فوقي ثلاثاً مكللاً راسي باكليلٍ اسود ، وهو يصيح ويصوّت : « اني اشمُّ رائحةَ جثةٍ . الى اين تجري ايها الفارس الاحمق وايها الفرس المجنون . هل يبحث الفارس هنا عن طريق ؟ وهل

يطاب الفرسُ هنا مرعى له ؟ هنا لا طريقَ إلاّ للرياح ، ولا مرعى إلاّ للثعابين . هنا لا مرقد الا للجثث ولا مسلك إلاّ للعقبان »

وكان العقاب يصوّت ويهددني بمخالبه اللامعة . فتراشقنا بالنظرات ثلاث مرات . فلم يستولِ عليَّ الرعب . بل استولى الرعبُ على العقاب . وأنا لم ازل أجدّ في الجري . وعند ما التفتُّ ثانيةً الى العقاب ، وجدتهُ على بعدٍ شاسع ، كأنهُ نقطة سوداء ، معلقة في كبد القبة الزرقاء ، بحجم العصفور ، فالفراشة ، فالبعوضة ، ثم اختفى في زرقة السماء

طِرْ يا حبيبي المحجل القوائم ، تنحي يا صخور ، ويا عقبان افسحي مجالاً . . !

على ان غمامة سمعت تهديد العقاب ، فنشرت أجنحتها البيضاء على وجه السماء الزرقاء ، وجدَّت في أثري : تريد الغمامة ان تكون فارساً جريئاً في الفضاء ، كما أنا فارس جريء فوق الغبراء . . . ثم وقفت فوق رأسي ، وصفرت تهديدها مع زمهرير الريح :

« الى أين يجري هذا الاحمق ؟ هناك الحرارة تذيب صدره . ولا غمامة تغسل رأسه من الرمل المحرق الذي يعلوه ، ولا جدولَ ماءٍ يدعوه اليهِ بخريرهِ الفضي . ولا قطرة واحدة تصل اليهِ من قطرات الندى ، لان الرياح الجافة تتشربها قبل الوصول اليه »

على ان تهديد الغمامة ذهب ادراج الريح ، وأنا لم أزل اجدُّ في السير ، وهي ترتجف في السماء واهنة القوى ، فحنت رأسها ، واتكأت على صخرة . ولما التفتُّ اليها ثانية كان بيننا بعد شاسع وقرأت على وجهها ما يدور في

صدرها . فاحمرّت حنقاً ، ثمّ اصفرت كمداً ، ثمّ اسودت حتى اصبحت كالجثة ، وأُلحدت وراء الصخور

طِرْ يا حبيبي المحجل ، تنحي يا عقبان ، وافسحي مجالاً يا غمائم ..!

وبعد ذلك سرحت الطرف في كل انحاء الافق كانني الشمس ، فلم ارَ حولي أحدًا

فالطبيعة هنا راقدة لم يوقظها الانسان قط من سباتها ، والعناصر مستكنة حولي اشبه بحيوانات جزيرة دخلها الانسانُ لاول مرة فلاتخاف منظره ...

يا الله : انا لست وحدي هنا .. ! ارى هناك جماعةً عند منفرج الرمال . أمسافرون هم . ام لصوص يترصدون المسافرين ؟ ما اشدّ بياضَ هؤلاء الفرسان . وما اروع بياض مطاياهم ..! اسرعتُ نحوهم فلم يتحركوا ، وناديتهم فلم يجيبوا . يا لله ! إنْ همُ إلاّ جثث . هذه « قافلة » كنست الريحُ الرمل عنها فتبدت هياكل عربانٍ على عظام جمالٍ . وكان الرمل يتساقط من ثقوبٍ كانت عيوناً في هذه الاجسام وكاني به يتهددني هامساً:

« الى اين يجرى هذا الاحمق ؟ فعما قليل تلاقيه المواصف »

ولكني ما زلت اجدُّ في السير ... تنحي يا جثث الموتى ، ويا زوابع افسحي لي مجالا .. !

وكانت زوبعة من اشد الزوابع التي تهزّ الاصقاع الافريقية تمشي منفردة على اوقيانس الرمال . فرأتني عن بعد ، فدهشت ووقفت . والتفت على نفسها قائلة :

« هذا اي ريح من الخواتي الصغيرات هو ؟ يتجرأ بشكلهِ الحقير وطيرانهِ البطيء على الدخول في الصحراء مملكتي ؟ »

قالت وزأرت هاجمة عليّ كأنها هرمٌ متحرك . ولما عرفتْ اني لستُ الا « انساناً » وانني لا أرجع عن عزمي ، تلظت غيظاً ، وضربت الارض بقوائمها ، فاهتزّ لها نصف بلاد العرب . وقبضت عليّ قبضة العقاب على العصفور ، ولطمتني بأجنحتها العاصفة ، وأحرقتني بنفسها الملتهب، وقذفتني في الهواء ، وضربت بي الارض . فانتصبتُ ووثبتُ عليها وعاركتها وفككت عقد عجاجها وزرتها ، وعضضتها فطحنتُ بأسناني قطعَ جسمها الرملي .حاولت الزوبعة الافلات من يدي فلم تتمكن وتقطعت ارباً. وسقط رأسها مطراً رملياً وتمددت جثتها العظيمة على قدمي كأنها سور مدينة

فتنفست حينذاك ، ورفعت عينيّ الى النجوم ونظرت اليها باعجاب .

فنظرت اليّ النجوم بأعينها الذهبية ، لانها لم ترَ غيري في الصحراء . . .

آه ما اعذب التنفس هنا بملء الرئتين . كل هواء بلاد العرب يكاد لا يملأ صدري . آه ما ألطف تسريح النظر هنا على قدر مدّ البصر ، فان عينيّ تنفتحان وتريان حتى ما وراء الافق . . ! آه ما ألطف بسط الذراعين هنا بحريةٍ على قدر طولها . وكأني قادرٌ على ضمّ الدنيا باسرها بين ذراعيّ من المشرق الى المغرب . . . !

فكري ينطلق كالسهم ، ولا يزال يحلق في العلوّ حتى يغوص في لجة السماوات . وكما ان النحلة تدفن حياتها مع حُمَتها حين تغرسها ، هكذا انا مع فكري اغرس نفسي في السماوات

ادم ميكيه ويكس